الأستاذ: محمد كمال جمعة

تصحيح وإيضاح

عن مقال للدكتور محمد عمارة في مجلة «الهلال» بعنوان

دعوات التجديد السلفية

تفضل معالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم العالي ورئيس مجلس إدارة دارة الملك عبد العزيز بالايعاز إلى الدارة أن تقوم بنشر هذا التصحيح والإيضاح والذي سبق أن أعدته الدارة في مجلتها «الدارة» وبهذا يعم النفع الذي ينشده الجميع. والدارة إذ تستجيب فإنها تشكر لمعاليه اهتمامه بها وبمجلتها، وحرصه على إحقاق الحق.

في مقال بعنوان «**دعوات التجديد السلفية**» نشر في مجلة «**الهلال**» في عدد ابريل ١٩٨٢ بقلم الدكتور «محمد عمارة» تعرض الكاتب «للوهابية». وإذا تجاوزنا عن تسمية دعوة وحركة **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** بهذا الاسم فإنا نجد الكاتب قد أنصف الدعوة حين قال:

«**وكان التوحيد الخالص، كما بشّرت به الوهابية إسهاماً في إعادة روح التميّز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على جبهة العقائد والشعائر الدينية**». وحين قال:

«**والوهابية كامتداد للفكر السلفي الرافض لتأثيرات الفلسفة اليونانية في حضارتنا قد تبنّت إبداع أعلام السلفية**».

وحين قال:

«وعلى هذه الجبهة الفكرية كانت الوهابية كامتداد للفكر الفلسفي إسهاماً في الجهد المبذول كي تستعيد الأمة هذه القسمة من قسمات استقلالها الحضاري».

غير أن كاتب المقال قد أساء إلى «الوهابية» بغير حق في سياق نفس المقال:

- فمثلاً حين عرض كاتب المقال لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وذكر أن الشيخ قد هاجم «القياس» حتى لو كان صحيحاً، ورفض أن يحتكم لغير النصوص كان الواجب على كاتب المقال أن يبرز أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد فتح باب الاجتهاد الذي كان معلقًا — ولو أنه كان اجتهادًا مقيّدًا — ويعتمد على نصوص القرآن والسنة الصحيحة.

- وحين تحدث الكاتب عن الجبهة الفكرية وعن «الوهابية» كامتداد للفكر السلفي قال: «... إن تكن بداوة بيئتها وفقر الفكر الفلسفي عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلاً في رفض التبعية، مع العجز عن الإبداع في بلْورة البديل!» فهل هناك بديل أحق وأشرف وأنبل من إعادة صبغ الحياة بنفس الصبغة الإسلامية القديمة أيام الإسلام الأولى والسلف الصالح؟

- وقد ألصق كاتب المقال «بالوهابية» تهمة هي بريئة منها حين قال: «... وجاءت الوهابية محكومة بأوضاع بيئتها البدوية فرفضت «التمدن» عامة، كجزء من

رفضها ذلك التمدن الغربي الذي كان يتسلل إلى عالم الإسلام».

والحق أن «الوهابية» حتى من أيام الدولة السعودية الأولى لم ترفض ما يسميه كاتب المقال بالتمدن رفضاً مطلقاً، وإنما رفضت منه — وما زالت ترفض — ما يتعارض مع تعاليم ديننا الحنيف. وديننا — كما هو معلوم — لا يرفض ارتقاء الإنسان بوسائل حياته المادية بل هو يشجع عليها طالما هي لا تبعد الإنسان عن جوهر الدين.

فإذا أخذنا جانباً واحداً من جوانب «التمدن» وهو أساليب القتال مثلاً فإنا نرى أن جيوش «الوهابيين» حتى من أيام الدولة السعودية الأولى كانت تستخدم في القتال — ضمن ما تستخدم — البنادق التي تضرب بالفتيلة، وهي سلاح (غربي)، بل إنهم حينما غنموا بعض المدافع في حروبهم ضد «محمد علي» فإنهم قد حاولوا استخدامها في حروبهم ضده.

وإذا كان الكاتب في هذا الصدد قد استشهد بالنسبة لما يسميه بسلبية «الوهابية» على جبهة العقلانية والتمدن بعبارة للشيخ محمد عبده فأغلب الظن أن هذه السمعة قد لحقت «بالوهابيين» في أنحاء العالم الإسلامي نتيجة للتشويه الذي كان في كثير من الأحيان متعمداً لأسباب سياسية، وفي أحيان أخرى نتيجة لتطرف بعض زعمائهم في فهم الدين مما أدى بهم إلى الخطأ في فهمه كما حدث بعد ذلك مثلاً من رفض بعض زعماء «الإخوان» عام ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٦م استخدام السيارات والتلغرافات والتليفون باعتبار أنها من أعمال السحر، وغني عن البيان أن هؤلاء كانوا قلة، ولم يكونوا متفقهين في الدين بقدر ما كان يقودهم الحماس لما ظنوه الدين الصحيح بدليل أن المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود قد استطاع بعد هذا أن يقيم دولة ناهضة على أساس من الدين القويم، ومن الإنجازات المدنية العصرية التي أيّده فيها العلماء المتفقهون في الدين.

أما قول كاتب المقال بأن ما دفع بالوهابية إلى الايغال في درب رفض التمدن إنما هو خلطها الشديد بين ما هو «دنيا» وما هو «دين» فتلك نظرة علمانية تفصل بين الدين والدنيا. وهي ليست من الإسلام الحق. وثمة أخطاء تاريخية وقعت في المقال ونتبّه إليها:

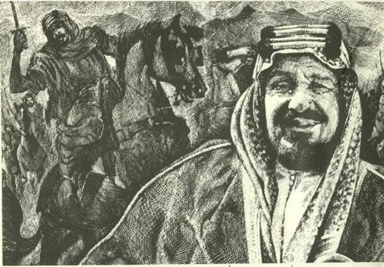

عبد العزيز أقام دولة ناهضة على أساس من الدين القويم والانجازات المعاصرة

— جاء أن سنة ميلاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالتاريخ الميلادي هي سنة ١٧٠٠ والصحيح أنها سنة ١٧٠٣م.

— ذكر كاتب المقال بأن **عثمان بن معمر** قد تعهد للشيخ بأن ينصر دعوة لا إله إلا الله، وأن يسخر قوته لاقتلاع عقائد الشرك ورموزه مقابل أن «يملكه الله نجداً وأعرابها». ورغم أن **عثمان بن بشر** في تاريخه «عنوان المجد» قد أورد هذه المقالة إلا أنه أوردها بصيغة أخرى وهي أن الشيخ عندما قدم إلى العيينة **ودعا عثمان بن معمر** إلى اتباع ما قام به ودعا إليه، وقرر له التوحيد، وحاوله على نصرته (أي حثّه على نصرته) قائلاً (أي الشيخ): «**إني لأرجو إن أنت قمت بنصرة لا إله إلا الله أن يظهرك الله تعالى وتملك نجداً وأعرابها..**».

فإذاً الكلام كان مجرد أمل للشيخ، ورجاء منه إلى الله سبحانه أن يعلي قدر ابن معمر إذا قام بنصرة «لا إله إلا الله».

وليس المراد أن عثمان بن معمر قد تعهد للشيخ بأن ينصر دعوة لا إله إلا الله، مقابل أن يملكه الله نجداً وأعرابها، كما أورد كاتب المقال. ذلك لأن الشيخ لم يكن

يملك من أمر نفسه شيئاً حتى يعد ابن معمر بملكية نجد وأعرابها، وإنما كل ما يملكه هو أن يتوجه إلى الله بالدعاء والرجاء أن يفتح الله على ابن معمر ويعلي قدره ويملك نجداً وأعرابها إذا نصر دعوة التوحيد.

— لا نقبل قول كاتب المقال إنه بعد تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع الأمير محمد بن سعود أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله وزوار قبر الرسول فمثل هذه الصيغة في القول ونعني بها «عرض دعوته» تنطبق على رسول الله الكريم وحده، فضلاً عن أن في هذا القول خطأً تاريخياً كذلك فالصحيح أن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب كان في مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل هذا التحالف بفترة، وإن كان هذا لا يمنع أن الشيخ كان قد صرّح في هذين المكانين الكريمين ببعض أفكار دعوته وبخاصة رفضه للبدع الشركية.

وأما بعد أن تم هذا التحالف فقد كان أكبر الجهد مبذولاً في تبصير أهل الأماكن — التي أخذ الجيش السعودي يغزوها — بالإسلام الحق، وهؤلاء بدورهم تحوّلوا إلى مجاهدين.

— لا نستطيع أن نقرّ كاتب المقال وهو يقول: إن **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** كان يقود الجهاد بنفسه في طليعة جيش ابن سعود، والصحيح أنه — رحمه الله — هو الذي كان يجهّز الجيوش ويبعث السرايا.

— ومن الخطأ قول الكاتب بأن «الوهابية» قد بقيت دعوة تسعى لإقامة الدولة حتى تيسّر لها ذلك في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين أي في زمن الإمام الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود — غفر الله له — فهذه هي الدولة السعودية الثالثة. ومعلوم أنه بنهاية الدولة السعودية الأولى قامت الدولة السعودية الثانية لفترة بدأت من عهد **الإمام تركي بن عبدالله** ثم ابنه **فيصل بن تركي** حين قدم إلى الجبل هارباً من مصر، ثم حاصر الرياض بعدها ودخلها عام ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م.

— ويحتاج إلى المناقشة قول الكاتب بأن «الوهابية» في المجال الفكري «قد شجّعت — إسلامياً — شرعية ولاية العثمانيين على العرب، عندما تبنّت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام — ومنهم فقهاء السلفية المنحاز لضرورة توافر شرط

العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام...» في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية أوضح أحد أتباع الشيخ موقف **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** من موضوع الإمامة وفيه جاء — ضمن ما جاء — إن الإمام المثالي يجب أن يكون حراً ذكراً عادلاً يعرف الشريعة، ويقدر على إدارة الشئون الاجتماعية للأمة وإذا توافرت هذه الصفات في واحد من قريش فإنه أولى بها ... بمعنى أن دعوة الشيخ السلفية لم تشترط أن يكون الإمام قرشياً. كما أن مجموعة التوحيد النجدية قد أثبتت رأي **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** نفسه في أن طاعة الحاكم واجبة وإن كان جائراً أو فاسقاً، وأن أمره يجب أن يتبع ما دام لم يأمر بمعصية، كما أن دعوته للجهاد يجب أن تلبَّى دون تردد.

فالدعوة السلفية. إذاً — لم تصطدم بالعثمانيين لمجرد أنهم عثمانيون غير عرب بل لأن العثمانيين قد أجازوا كثيراً من البدع الشركية التي قامت الدعوة من أجل محاربتها، ثم لأن العثمانيين هم الذين بدأوا الدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية بالقتال. فالمعروف تاريخياً أنه لم يكن هناك أي وجود حقيقي للعثمانيين في نجد أيام قامت الدعوة بل ربما أن العثمانيين لم ينتبهوا أو يهتموا بقيامها، ولكن حين رأوها تنشط وتتوسع خافوها، فحرضوا ولاتهم في العراق والشام على محاربتها، فلما عجزوا كلفت الدولة العثمانية واليها على مصر «محمد علي» بذلك.

ومن الخطأ المطبعي ما وقع في كتابة اسم أمير العيينة على أنه عثمان بن أحمد بن معمر وصحته «**عثمان بن حمد بن معمر**».

وأياً كان فإن المقالة في جملتها ليس بها ما يشين أو يسيء للدعوة ولأئمتها ومن ناصروها عن قصد، وأن ما ورد بها من أخطاء يبدو أنها اجتهادات شخصية غير متعمدة من الكاتب.

والجدير بالذكر أنه قد صدر لنفس الكاتب وهو **الدكتور «محمد عمارة»** كتاب جديد نشرته دار الهلال كذلك في سلسلتها الشهرية المسماة بكتاب الهلال بعنوان **«تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة»** في شوال ١٤٠٢ هـ/ أغسطس ١٩٨٢.

ويبدأ الكاتب كتابه هذا بالحديث عن تيارات التجديد السلفية: الوهابية والسنوسية والمهدية.

ويقول وهو يعرض لأول هذه التيارات بعنوان «الوهابية ... الإسلام العربي ... الخلافة العربية». عن **عثمان بن حمد بن معمر** رئيس العيينة — بعد أن كان قد استجاب لدعوة الشيخ ونصره في هدم قبة زيد بن الخطاب في الجبيلة: (على صفحة ٣٠ من هذا الكتاب) «... ثم أعقبت هدمها هزة نفسية في صفوف الأعراب، هددوا بها حاكم «العيينة» بالتمرد على سلطانه إن هو ناصر دعوة ابن عبد الوهاب، فوزان الحاكم بين ما بيده من السلطة وبين ما وعده ابن عبد الوهاب منها في المستقبل وبين الثواب عند الله، فاختار العاجل على الآجل، والدنيا على الآخرة، وتخلّى عن نصرة التجديد والتوحيد، أو بالأحرى تخلّى عن الأسلوب العنيف لابن عبد الوهاب في نصرة الدعوة، وطلب إليه أن يغادر العيينة فراراً بنفسه قبل أن يفتك به الغاضبون لهدم قبة زيد بن الخطاب».

والحق أن المصادر الأصلية عن تاريخ **الشيخ محمد بن عبد الوهاب** ودعوته ونعني منها هنا «**عنوان المجد في تاريخ نجد**» للمؤرخ الشيخ **عثمان بن عبدالله بن بشر** و«**روضة الأفكار والأفهام**...» **للشيخ حسين بن غنام** تجمع على أن السبب الذي جعل **عثمان بن معمر** يطلب إلى الشيخ **محمد بن عبد الوهاب** مغادرة العيينة إنما هو أمر **سليمان بن محمد رئيس بني خالد والأحساء لعثمان** بقتل الشيخ أو إجلائه عن بلده ولم تكن لعثمان طاقة على مخالفة أمر سليمان بن محمد أو قدرة على حربه، ثم إننا لا نفهم معنى لقول الكاتب الدكتور محمد عمارة «... أو بالأحرى تخلي عن الأسلوب العنيف لابن عبد الوهاب في نصرة الدعوة ...» فهل يقصد الكاتب بهذا الأسلوب العنيف ما قام به الشيخ من هدم القباب وقطع الأشجار التي كان الناس يتبركون بها أو حتى رجم الزانية المحصنة التي اعترفت بجرمها غير مكرهة. وواضح بالطبع أن هذا كله إنما يدخل في باب التطبيق العملي للدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية وإعمال التوحيد الحق على النحو الذي جاء به الإسلام الحق فواضح أن القيام بمثل هذه الأعمال لا يسمى استخدام أسلوب عنيف.

ويقول الدكتور محمد عمارة في آخر هذا المبحث «الوهابية : الإسلام العربي... والخلافة العربية» على ص ٣٣ من الكتاب «.. لكن دعوة ابن عبد الوهاب لم تمت بهزيمة دولتها فلقد عاشت، بل وعادت في مرحلة تالية فأقامت دولتها من جديد، ولكنها ظلت، دعوة ودولة في شبه الجزيرة العربية وحدها، ودون أن تتعداها ... لقد

كانت تجديداً للإسلام، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث، والدعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون ... ولكن آفاقها المحدودة، وفكريتها المحافظة، وأساليبها البدوية العنيفة قد أبقت عليها حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم، فاختصت بهم، واختصوا بها، وانفردوا وحدهم بهذا الشرف من دون المسلمين!.

وفي هذا القول ما هو صحيح وما هو غير صحيح. فالصحيح أن دعوة الشيخ لم تمت بهزيمة الدولة السعودية الأولى، وأنها عادت في مرحلة تالية فأقامت دولتها من جديد. والصحيح أنها كانت تجديداً للإسلام، وطليعة يقظة أهله على عتبة العصر الحديث. وأما أنها كانت دعوة إلى عروبة الخلافة والدولة بعد أن استأثر بها الأتراك قرابة ثلاثة قرون فقد سبق وأن ناقشنا هذه النقطة في مقالنا هذا.

وأما غير الصحيح فهو وصف الدكتور محمد عمارة لآفاق الدعوة بأنها كانت محدودة وأن فكريتها كانت محافظة. نعم عنيت الدعوة بموضوع رئيسي هو إعمال التوحيد ونشر الإيمان به إيماناً راسخاً مبرءاً من كل شائبة، إلا أن التطبيق السعودي الحالي لهذا قد أثبت عملياً وبما لا يقبل الشك أن هذا لا يحول دون الإفادة من ثمرات العلم الحديث وتطبيقاته، والارتفاع بمستوى حياة الإنسان مادياً بدون التضحية بطبيعة الحال قيد أنملة بحياته الروحية، والقول بأن فكريتها كانت محافظة لا يعيبها إذا كانت المحافظة تعني المحافظة على الإسلام : نصًا وروحًا . وأما عن وصف أساليبها بأنها بدوية عنيفة ، فقد سبق لنا هنا إيضاح تهافت هذا الوصف .

ومن الخطأ قول الكاتب الدكتور «محمد عمارة» بأن الدعوة كانت حركة تجديد ويقظة لأعراب شبه الجزيرة وحدهم، فاختصت بهم، واختصوا بها، وانفردوا وحدهم بهذا الشرف دون المسلمين. ولعل الكاتب إذا رجع إلى المصادر والمراجع التي أرّخت للدعوة يتبين له أنها بالفعل قد انتشرت خارج الجزيرة العربية بالرغم من العوامل السياسية الكثيرة التي كانت تقف ضد هذا الانتشار فظهر أثرها الواضح في شبه القارة الهندية، وفي أندونيسيا، وفي غرب أفريقيا، كما ظهر أثرها في بعض أرجاء العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، بل وأثرت في الحركات الدينية التي لحقتها مثل السنوسية والمهدية .. وثمة كتاب أصدرته دارة الملك عبد العزيز بعنوان «انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية» يمكن أن يكون فيه ما يعين الدكتور محمد عمارة على تصحيح مفهومه هذا عن انتشار الدعوة. والله الموفق...